في جلسة حوارية استضافتها المؤسسة التي تحمل اسمه وأوصى بربع تركته لها

عبد المحسن القطّان: أرفض أن أعود إلى فلسطين تاجراً .. وأسعى إلى تأسيس معهد دراسات إستراتيجية مستقل

السكاكيني شخصية لا تتكرر أثَّر في أجيال بأكملها وعلَّمني عشق الشعر والفنون

كتب يوسف الشايب:

الحديث مع عبد المحسن القطان بالتأكيد يأخذنا إلى مناطق مختلفة، ما بين حديث الذكريات، والأعمال، والثقافة، والسياسة، وأولاً وأخيراً فلسطين .. يبدو أن حواري «الإنساني» معه في العام 2009، وتحدث فيه عن طفولته وفلسطين قبل النكبة، وحكاية تعرفه إلى زوجته والعائلة وغير ذلك من التفاصيل الخاصة، لم يشبع نهمي لسماع المزيد منه، فكانت هذه الجلسة الحوارية التي جمعتني وإياه، وزميليّ غسان زقطان، وأكرم مسلم، والمخرج عمر القطان، نجله، في مقر مؤسسة عبد المحسن القطان، بمدينة رام الله، يوم الجمعة الماضي، تلك المؤسسة التي أوصى مؤخراً بربع تركته لصالحها.

نقطة الانطلاق

بداية الحديث كانت في رد على سؤالي حول اتجاهه نحو دعم الثقافة والفنون والتعليم من خلال المؤسسة التي تحمل اسمه، في وقت يغيب غالبية رجال الأعمال الفلسطينيين عن هذا التوجه، **فأجاب**: بالنسبة لي، لا أجد عذراً للفلسطينيين ممن لديهم «فائض في الأموال»، بالتنصل من دعم «أهلهم» في جميع المجالات .. الفرق بيننا وبين الغرب، على سبيل المثال، في الغرب هذا التوجه المالي عمل تراكمي، وبخاصة في عصر النهضة بأوروبا، حيث كانت رؤوس الأموال تفتخر برعاية المثقفين والفنانين، لكننا كنا، وبخاصة في العصرين الأموي والعباسي، نشتهر برعاية الشعراء والأدباء ... ما حصل في فلسطين، أن رجال الأعمال في مجملهم كوّنوا ثرواتهم خارج الوطن، وللأسف كانت نسبة عالية منهم من غير المثقفين، حيث أن العديد منهم باتوا أغنياء لأنهم كانوا يعيشون في بلاد بعينها، وليس بسبب كفاءتهم، وأعتقد أن هذا سبب من بين أسباب عدم توجههم لدعم مثل هذه القطاعات .. الأجيال التي تليهم متعلمة ومثقفة، وبالتالي الصورة بالضرورة ستختلف، لكني أؤكد أن هذا لا يبرر التقصير في هذا المجال، ولا بأس من حملة توعية بالمسؤوليات الملقاة على عاتق رجال الأعمال، تشارك فيها مؤسسات المجتمع المدني، وغيرها.

وأضاف **القطان**: لا أحب الحديث عن نفسي، لكن لربما ما دفعني لدعم هذه القطاعات وغيرها، أنني نلت نصيباً جيداً من التعليم، واهتممت بتعليم أبنائي تعليماً جيداً، ولدينا تراكم جيد في الحياة ..

ثم برأيي أن أعظم متعة في الحياة بعد أن يحقق الإنسان ويلبي مطالب عائلته، هي العطاء .. لا يوجد متعة ولا فرح تضاهي متعة العطاء، وهذه ثقافة لا بد من تعميمها.

وفصّل **القطان**: الثقافة هي التي تميز مجتمعاً عن آخر، وهنا أتحدث عن إدراك التاريخ، والحضارة، والمتميزين في مجتمعهم .. أي مجتمع ليس لديه ثقافة أو حضارة لا جذور لديه، وبالتالي لن يزيد على كونه «مجموعة من البشر يأكلون ويشربون وينامون» .. بلادنا مجبولة بالحضارة وبثقافات متعددة، على الرغم من التحديات التي نعانيها بسبب الاحتلال الإسرائيلي وما سبقه من احتلالات ... أعود وأكرر أنه لا بد من حملة لدفع رجال الأعمال وأصحاب الأموال من الفلسطينيين لدعم مشاريع تنموية في فلسطين، وإن بدأ كل بقريته أو محيطها، أو دعم خريجي الثانوية العامة في منطقته بالحصول على تعليم عالٍ جيد .. هذه خطوة أولى في غاية الأهمية.

جرس الجلسة يقرع

غسان قطان: نحن متفقون على أن رأس المال الفلسطيني مقصر في شأن عمله المدني العام، وكأنك تربط جزءاً من هذا التفكير بالمستوى الثقافي لعدد من أصحاب رؤوس الأموال.

عبد المحسن القطان: هذا صحيح إلى حد ما .. تخطر على بالي فكرة قد يبادر إليها رجال الفكر والثقافة بدعم من مؤسسات المجتمع المدني، تتمحور حول تنظيم مؤتمر لعشرات من رجال الأعمال المقيمين خارج الوطن، وبخاصة أننا لا نريد منهم تقديم كل أموالهم، بل جزء مما هو فائض منها.

غسان قطان: لماذا لا يقوم رجال الأعمال من المتنورين بتشكيل ائتلاف ما، أو الدعوة إلى مؤتمر كهذا، وبخاصة أنكم أقدر على الوصول إليهم منا؟

عبد المحسن القطان: ليس لدينا مانع ... نحن مع استقطاب أي رجل أعمال لدعم أهله في فلسطين .. من يريد أن يقوم باستثمارات تجارية شفافة مرحب به بكل تأكيد ... بالنسبة لي قطعت على نفسي عهداً، واتخذت قراراً مسبقاً مفاده «لا يمكن أن أطمع بمصلحة من فلسطين»، وهذا أمر محسوم تماماً ... قلتها وأكررها أنني «لا أعود إلى فلسطين تاجراً» .. هذا لا يعني أنني ضد من يأتون إلى التجارة، لكنني ضد اقتناص الفرص على حساب الناس ... أعتقد أن مؤسسة التعاون هي الأقدر على القيام بمبادرة من هذا القبيل، وأنا أتحدث عنها كوني أحد مؤسسيها وأعرفها جيداً.

عمر القطان: المسألة المهمة بالنسبة لي تتعلق بالدور الذي يلعبه قطاع الثقافة، الذي أعتقد أنه حتى الآن لا يملك الأبعاد الكافية لإقناع قطاعات كبيرة من المجتمع بضرورة الدفاع عنه، ولعل من أسباب ذلك ارتباط الكثير من الإنتاج الثقافي الفلسطيني بعملية سياسية محدودة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى الابتعاد عن البعد العربي في تعاطينا مع الثقافة ... بالنسبة لي غريب ومستهجن التركيز على التمايز الثقافي الفلسطيني ... هذا يدفعنا للحديث عن علاقة الإنتاج الثقافي الفلسطيني بالسلطة بمفهومها العام، ومع الأسف معظم الإنتاج الفلسطيني في هذا المجال كان على علاقة حميمية بالسلطة، ولم يلعب الدور الناقد بالمعنى الداخلي للسلطة بمعناها السياسي أو المجتمعي.

عبد المحسن القطان: من الأخطاء التي ارتكبتها الحركة الوطنية برأيي هو الإصرار على أن يكون القرار الفلسطيني «قرار فلسطيني بحت» ... هذا أعفى جميع الأنظمة العربية من أية مسؤوليات، وجعل مهمتهم تقتصر على الدعم المادي ليس أكثر ... ما أريد أن أقوله وأعتقد أن هذا ما يعنيه عمر أيضاً، هو أننا لا يمكن أن ننتصر دون بعدنا العربي، وبخاصة أن ميزان القوى ليس في صالحنا.

ما بين الدعم والصناعة

عمر القطان: لنعد قليلاً لنتحدث عن الثقافة .. باعتقادي المهم هو إيصال فكرة راسخة لدى كل من يرغب بدعم المجال الثقافي أو الفني بأنه إذا قام بذلك، فإنه يدعم قطاعاً حيوياً يؤثر ويغير، وحينها ستكون هناك حالة من الحماسة إزاء ذلك، ولعل النجاحات التي تحدث عنها يوسف في السينما والدراما والأدب وغيرها بدأنا نلمس حماسة رمزية، وإن كانت نرجسية بعض الشيء أحياناً .. فلسطين التي أعرفها هي أوسع بكثير من مجرد كونها رمزاً وطنياً ... الثقافة في النهاية قطاع اقتصادي مهني، ومن يريد الاستثمار فيه عليه أن يدرك أنه قطاع حيوي قادر على خلق فرص عمل، والمساهمة في انفتاح فلسطين على العالم، وأن القضية ليس إنتاج فيلم هنا، وإصدار كتاب هناك، وانتهى ... هذا القطاع يمنح فرصاً للإبداع التقني ويخلق فرصاً للإبداع، كما هو الحال في شمال إيطاليا التي تعتمد على الأزياء كصناعة، وهي حالة فنية بالأساس.

يوسف الشايب: هذا ما أعنيه تماماً .. الصناعة الثقافية .. أنتم في حالة مؤسسة عبد المحسن القطان تدعمون قطاعات ثقافية وفنية وتربوية، وهذا يختلف عن فكرة الصناعة .. ما أريده، حتى ممن لا يرغبون في دعم هذه القطاعات، هو التفكير فيها كقطاعات يمكن الاستثمار فيها، وتحويلها مع الوقت إلى قطاعات صناعية تجارية راسخة، وباعتقادي هذا ممكن، لاسيما أننا أضعنا الكثير من الفرص في هذا المجال.

غسان قطان: القطان كمؤسسة برأيي إحدى أهم المؤسسات التي

تراكم عملاً، ولا تقدم أنشطة فحسب، لكنها لم تتجاوز فكرة الدعم .. والدعم مهما كان يبقى مشتتاً .. وثانياً كان هذا الدعم موجهاً باتجاه شريحة دون غيرها، وأعني الشباب، مع أنني أرى أنه انحياز صائب بطبيعة الحال، لكن هناك الكثيرين بحاجة إلى دعم من خارج قطاع الشباب.

عبد المحسن القطان: أولاً نحن في النهاية لدينا موارد محدودة ... ثانياً الرهان الناجح برأيي لن يكون إلا على الشباب ... لم يكن هناك من يرعى المواهب الشابة، ومع الوقت تحولت مؤسسة القطان إلى ما يشبه بيتاً للشباب المبدع .. أي مجتمع بحاجة إلى تطوير ودعم كما هو الحال في فلسطين، لا بد أن يلتفت إلى المستقبل المتمثل بالشباب، وبخاصة أولئك من غير الميسورين .. ثم علينا أن نلتفت إلى أن السلطة عاجزة بإمكاناتها، وربما بطريقة تفكيرها على جمع شمل الشباب ورعايتهم .. باعتقادي لو كان في فلسطين عشر مؤسسات كالقطان والتعاون لتغير المجتمع بأسره، وبخاصة من الناحية الفكرية ... نحن قمنا بخطوات، ولا ندعى أننا حللنا كل مشاكل الشباب .. العاملون في القطان أثبتوا نجاحات كبيرة منذ تأسيسها، حتى باتت مؤسسة تضم أكثر من ثمانين موظفاً في الضفة وغزة، وهذا يعود لكفاءتهم ومهنيتهم، والأهم انتماؤهم الشديد ومحبتهم الكبيرة للمؤسسة.

نقطة تحول

عبد المحسن القطان: أنا شخصياً لو لم تحدث النكبة في العام 1948، لكنت أعمل في الشأن العام، وليس في «البزنس»، لأنني بالأساس لست رجل أعمال .. حين كنت في السنة الثانية من دراستي الجامعية قررت تغيير اختصاصي من دراسة السياسة إلى دراسة إدارة الأعمال والشؤون المالية، وهذا جاء لإدراكي بأن دراستي لهذا الحقل ستوفر لي فرص عمل أسهل، وربما دخل أفضل يمكنني من إعالة أسرتي، وبخاصة بعد وفاة والدي ... حين كنت طالباً جامعياً في بيروت كان جل وقتي يذهب للعمل في الشأن العام ... كانت الدراسة بمثابة «واجب اضطراري».. بعد التخرج والزواج والعمل، وفي اللحظة التي بات لديّ وزوجتي بعض الفائض من المال صببنا اهتمامنا بالتعليم .. «بكل تواضع» من أرسلناهم ليتعلموا في جامعات العالم المختلفة يقدرون بالمئات.

عبد المحسن القطان رئيس مجلس الأمناء، وعمر القطان أمين السر، خلال زيارتهما مركز المعلمين في نعلين.

ذكريات

وفي استمرار لنبش الذاكرة، ينقلنا القطان ليتحدث عن القدس والثقافة وغيرها من المحاور .. فيقول: جئت إلى القدس في سن الرابعة عشرة، وتتلمذت على يد خليل السكاكيني، وهذا الرجل أثر فيّ تأثيراً بالغاً ... .

أكرم مسلم: ويبدو أنه كان متأثراً بك أيضاً .. وقرأ شيئاً من مذكرات السكاكيني التي أشرف على تحرير أجزائها، ويتحدث فيها عن عبد المحسن القطان كأحد أبرز طلابه في القدس، والحديث هنا عن الخامس من تموز العام 1947، في حفل التخريج بالمدرسة.

عبد المحسن القطان: خليل السكاكيني جعلني أعشق الشعر والفنون .. منذ تلك اللحظة وأنا أحفظ أبياتاً من الشعر للمتنبي، والمعري، والبحتري، وغيرهم .. كانت للسكاكيني صفات لا تتكرر عند غيره .. من الأشياء التي كان يعلمنا إياها بعض آيات القرآن الكريم مع أنه مسيحي .. ساهم السكاكيني في تفتيح عقول أجيال بأكملها .. أتذكر أنه حين كان يدخل حجرة الصف كان يكتب عشرة أبيات من الشعر، ويمحوها بعد ربع ساعة، وكنت أتميز بقدرتي على الحفظ، وهذا لربما ما دفعه للاهتمام بي شخصياً .. السكاكيني علمني أشياء لم أكن لأعرفها دونه .. حملت ما علمني إياه السكاكيني إلى الجامعة، فقررت دراسة السياسة والتاريخ، قبل قرار التحول نحو دراسة إدارة الأعمال ... غيرت التخصص ولم أغيّر الاتجاه.

مقدادي والكويت

عبد المحسن القطان: لا أنكر أن لزوجتي ووالدها المناضل درويش مقدادي، تأثيراً إيجابياً كبيراً عليّ وعلى طريقة تفكيري.

أكرم مسلم: درويش مقدادي أيضاً ورد في يوميات خليل السكاكيني .. يبدو أن علاقتك فيه قديمة؟

عبد المحسن القطان: درويش مقدادي جاء في مرحلة لاحقة إلى القدس ... مقدادي كان في العراق، واشترك في ثورة رشيد كيلاني مطلع الأربعينيات، وقدم إلى القدس بعد أن أطلق سراحه من سجون بغداد .. سجنته السلطات العراقية إثر اشتراكه في هذه الثورة، وأجبرت أسرته على هجرة العراق، ومن بينهم زوجتي وإخوانها ووالدتها التي توفيت وهم صغار .. بعد رحيلهم هاجروا إلى طولكرم، بعد سحب جنسيتهم العراقية، مع أنهم فلسطينيو الأصل .. مقدادي من أصدقاء خليل السكاكيني، وحين بات مديراً للتعليم في القدس مارست التدريس هناك لعام، وتعرفت بالصدفة إلى ابنته التي باتت زوجتي .. بعد عمله في القدس عمل في الكويت مديراً للتعليم، وتوفي هناك ... أثر عليّ بصدقه وأمانته وتواضعه وبساطته، واهتمامه بالتعليم، وهو ما انعكس علينا وعلى أبنائنا بالإيجاب.

عمر القطان: لكنك ترددت في التوجه إلى الكويت؟

عبد المحسن القطان: كنت أدرس في الكلية العلمية الإسلامية في عمّان، وفي نهاية الأسبوع كنت آتي إلى رام الله والقدس لتعليم البعض إدارة الأعمال والشؤون المالية، من باب تحسين وضعي المادي .. كنت قبلها درّست لعام في الكويت، قبل العودة إلى عمّان ... في تلك الفترة جاءتني برقية من صديق كان على علاقة طيبة بوزير الكهرباء الكويتي، يرشحني فيها لعمل إداري ذي صلة .. في البداية كنت متردداً، حتى إنني طالبت بمنزل وسيارة وراتب مرتفع نسبياً من باب التعجيز، لكنهم وافقوا على ما طلبته، فتوجهت إلى الكويت، وعملت لعشرة أعوام في الحكومة وحتى اللحظة ما زلت أمارس عملي الخاص وأعيش في الكويت.

حرب الخليج

يوسف الشايب: بما أننا نتحدث عن الكويت .. كان الغزو العراقي وحرب الخليج نقطة تحول في العلاقات الفلسطينية الكويتية .. ومثار خلافات بين القيادة فيما بينها، والقيادة وبعض النخب السياسية والثقافية والفكرية وحتى رجال الأعمال .. ماذا عنك؟

عبد المحسن القطان: الموضوع باختصار أن قرار القيادة الفلسطينية في ذلك الوقت كان في غاية السوء، ولا يزال الشعب الفلسطيني يدفع الثمن حتى هذه الأيام .. برأيي وقوف أبو عمار إلى جانب صدام حسين بعد احتلاله الكويت كان أحد الأخطاء الكبرى في التاريخ الفلسطيني المعاصر، وبخاصة أن قرابة نصف مليون فلسطيني كانوا يعيشون في الكويت، وهو نفسه نشأ في الكويت .. أتذكر أنه كان يزورني كثيراً في منزلي في الكويت، والكويتيون قدموا الدعم الكبير لعرفات ومنظمة التحرير .. تحدثت معه بصراحة في ذلك، وشددت حينها على أننا بلد محتل، ويجب ألا نقف مع قوة احتلال مهما كانت الظروف، والأهم أن في الميثاق الوطني الفلسطيني نصاً واضحاً وصريحاً يتحدث عن أننا لسنا فريقاً في أية خلافات عربية، وبكل فخر أقول أنني كنت رئيس المجلس الوطني حين وضع هذا النص ... قال لي إنه لم يقف مع الاحتلال، لكني كنت ولا أزال أرى أن عرفات رحمه الله أخطأ، وكان بإمكانه أن يكون محايداً بشكل حقيقي .. أبو عمار كان بارعاً في التكتيك وليس في صياغة الإستراتيجيات، وأعتقد أن موقفه هذا من حرب الخليج كان نابعاً بأن لا حرب ستندلع، ولا احتلال سيكون .. باعتقادي موقف القيادة الفلسطينية من حرب الخليج هو ما دفعنا إلى «أوسلو» الذي برأيي هو اتفاق مهين ... على الصعيد العاطفي

هناك ود بيني وبين عرفات، وهو من أصدقاء عمري، والاختلاف بيننا لم يفسد للود قضية.

يوسف الشايب: لماذا هذا الموقف من «أوسلو»؟

عبد المحسن القطان: قلتها لعرفات رحمه الله .. لأن «أوسلو» لا تحتوي على أية جملة تشير إلى «للفلسطينيين حق وطني»، وثم إن قضية القدس، وإن تم الاتفاق على تأجيلها للمرحلة النهائية، لكن لم يرد نص في أوسلو يشترط على «أن لا يتم تغيير معالمها بالمطلق»، والنقطة الثالثة ما يتعلق بالاستيطان، حيث استندت القيادة إلى وعودات شفهية إسرائيلية في هذا المجال.

أكرم مسلم: لنعد لنتحدث عن حرب الخليج .. الموقف الفلسطيني لم يكن موقف القيادة فحسب، بل كان توجهاً شعبياً عاماً في فلسطين.

عبد المحسن القطان: لو كنت قائداً ولدي قناعة بأن موقف الجماهير خاطئاً لن أرضخ للجماهير، حتى لو تنحيت .. ثم إن القيادة لم تكن كلها مع الموقف الذي اتخذ من حرب الخليج، ومن بينهم على سبيل المثال لا الحصر، أبو إياد، وأبو مازن، وغيرهما.. القائد يجب أن يقود ولا ينقاد.

القطان والسياسة

عمر القطان: في فترة ما كنت بصدد الاستمرار في ممارسة العمل السياسي .. ما الذي دفعك للابتعاد عنه وكنت رئيساً للمجلس الوطني أو مرشحاً للرئاسة ذات يوم؟

عبد المحسن القطان: لم أبتعد عن السياسة بمعنى العمل العام يوماً .. كان هناك فترة لو تم تلبية توجهاتي وما طلبته لربما ضحيت بمستقبل عائلتي وواصلت العمل السياسي ... كان ذلك في العام 1968، وكانت ثمة توجهات داخل منظمة التحرير لإنهاء عهد الشقيري، وكانت تربطني وإياه علاقات متينة، واجتمعت بحسيب الصباغ وعبد المجيد شومان وصغنا له رسالة نتمنى عليه فيها أن يترك منصبه، ونقلها إليه الصباغ، ووافق على ذلك .. بعد استقالة الشقيري قام المستقلون بتأسيس لجنة لانتخاب مجلس وطني جديد في عمّان، وكنت ومعي شومان نطالب بعدم انضمام العسكريين إلى المجلس الوطني، وتوصلنا إلى حل وسط قبل أن نتوجه إلى القاهرة لعقد أول اجتماع للمجلس، وأتذكر أنني كنت برفقة شومان والمرحوم كمال ناصر، ومن باب الطرفة، أنه حين حطت الطائرة في مطار القاهرة، جاء العتالون إلى كمال ناصر للحصول على أجرتهم، فاستهجن أنهم يتركون القطان وشومان ويتجهون إليه «هو المفلس».

جانب من زيارة مركز المعلمين في نعلين.

ويواصل القطّان حديثه: في مساء ذات اليوم اجتمعت بـ«أبو إياد»، وخالد الحسن، وشومان، وإبراهيم بكر، ليخبروني بقرارهم انتخابي رئيساً للمجلس الوطني .. استغربت كوني أصغرهم سناً، لكنهم أكدوا أن هذا الترشيح جاء بعد مشاورات معمقة .. رفضت، ورشحت آخرين، لكنهم أصروا على ذلك، بعد أن أخبروني بأن انتخابات داخلية هي من أفرزت ترشيحي لهذا المنصب .. هنا كانت اللحظة المفصلية في تاريخي مع العمل السياسي، وقبلت من باب تحمل المسؤولية، وعيّنا اللجان، وأنجزنا الميثاق الوطني الفلسطيني .. بعد إنجاز الميثاق اجتمعت بخالد الحسن، وأبو إياد، وعلى ما أذكر أبو جهاد، وغيرهم، وشددت على ضرورة انتخاب لجنة تنفيذية في اليوم التالي، وأشرت إلى أنه لا بأس أن تكون اللجنة التنفيذية ممثلة من أعضاء فصائل المنظمة، لكنني اشترطت أن يكون المال بيد جهة واحدة، والسلاح بيد جهة واحدة .. وعدوني بمناقشة الاقتراح، إلا أن خالد الحسن أخبرني برفض هذا التوجه، وحين وجهت خطابي الأخير، وقلت لهم «أنتم لا تستحقون تمثيل الشعب الفلسطيني» .. و«حملت حالي وروّحت»، ومن يومها اعتزلت العمل السياسي بالمفهوم التقليدي، وبخاصة أنني لم أكن قادراً -لو رغبت- على المواجهة كونني لم أكن مدعوماً من حركة أو حزب، لكنني لم أرغب.

واستكمالاً لحديثه في السياسة، ورفض اقتراحاته بأن يكون المال بيد جهة واحدة، وكذلك السلاح، يضيف القطان: ربما بسبب رفض ما طالبت به في 1968، لا نجد اليوم فرقاً بين «حماس» و«فتح» .. الأمر بات يتلخص بأنه صراع على السلطة، وبخاصة أن الطرفين باتا يجمعان على الدولة بحدود العام 1967، وما أؤكده أنه لم يعد هناك فرق في التوجهات النضالية بين الفريقين.

الحريات الاجتماعية

يوسف الشايب: في وقت الثورات والأمل ببزوغ عصر جديد من الحريات السياسية، لا نزال نشهد ومنذ عقود تراجعات كبيرة على صعيد الحريات الاجتماعية، التي يتم تبريرها بأسباب دينية أحياناً، وأشعر أن شكوكاً كثيرة لا تزال تحيط بمصير هذه الحريات، وما إذا كانت ستشهد تحولات هي الأخرى في عصر ما بعد الثورات العربية .. ما رأيك؟

عبد المحسن القطان: أعتقد أن فقدان الأمل، والإحباط العام، هو وراء هذا التراجع في الحريات الاجتماعية في فلسطين والعديد من الدول العربية، وهذا يجعلهم «يلجأون» إلى الدين، والدين ليس بمفهومه المتسامح في الكثير من الأحيان .. علينا أن نزرع الأمل بين الشباب وغيرهم، لتدب الحياة مجدداً في المجتمع الذي هو وحده القادر على إحداث التغيير المطلوب على مستوى الحريات العامة .. الفلسطينيون يعانون اليوم من إحباط سياسي، واجتماعي، واقتصادي، ولا آفاق للحل، وهذا بالتأكيد سينعكس إما بالانكفاء على الذات، أو بالانفجار، وهي ردود فعل متطرفة في الحالتين.

عمر القطان: هناك فرق كبير بين الدين والإيمان .. على المثقف أن يكافح من أجل عدم إقحام الدين في شؤون الناس الاجتماعية والشخصية، أما الإيمان فهو موضوع شخصي .. إذا لم نفصل الدين عن أمور الدولة وإدارتها لن نتقدم .. وهذه عبقرية الواقع، وليس عبقرية الغرب، وهذا لا يلغي أن أكون مؤمناً، وربما متطرفاً في إيماني، ما دام في إطار علاقة الإنسان بمن يعبد.

فكرة المؤسسة

وحول فكرة تأسيس مؤسسة عبد المحسن القطان .. قال: قبل حوالي 15 سنة، وجدت وزوجتي وعمر ابني، وكان تخرج من الجامعة، أن تأثير المعونات الفردية التي نقدمها يبقى محدوداً في نهاية المطاف، ففكرنا ببناء المؤسسة، واستعنت بفلسطينيين وأجانب لبلورة هذه الرؤية في أطر واضحة .. كان اهتمامنا منصباً على العمل باستقلالية وشفافية تامة في مجالات عدة على رأسها الثقافة والتعليم والتنمية والطفل، ولذلك بنينا في غزة مركزاً للطفل أعتقد أنه الأول من نوعه، وربما الوحيد من نوعه في فلسطين .. ومع الوقت، وبوجود الكفاءات التي تعمل في المؤسسة، تطور عملها، وباتت تحقق نفسها بوضوح.

عمر القطان: العملية تراكمية بالأساس .. ليس هناك منا من يتسلح بوهم أننا نملك عصى سحرية لحل جميع مشاكل العالم، مع المعنى المجازي لما أقوله .. نحن نتحدث عن أهمية التراكم .. إذا ما قارنا مجمل الحقول الثقافية والفنية في فلسطين بما كانت عليه قبل عشرين عاماً، نلاحظ أن ثمة تقدماً كبيراً في هذه المجالات .. نحن لا نختلق أو نبحث عن مواهب، بل نبحث عن أطر لإبراز هذه المواهب، وإتاحة المجال أمامها لتحقيق نفسها .. فيما يتعلق بموضوع الدعم، انتهجنا في بداية عملنا سياسة الجوائز، ومع الوقت طورنا نفسنا، سواء فيما يتعلق ببرنامج الثقافة والفنون، أو مركز البحث والتطوير، أو مركز الطفل، حتى باتت التدخلات الخاصة بهم كبيرة وأكثر عمقاً من مجرد منح الجوائز، ويكفي أن نتحدث عن مدرسة الدراما في فلسطين، ومدرسة الدراما في التعليم التي تنظم كل صيف في الأردن، حتى بتنا مثالاً يحتذى به ليس في فلسطين فحسب، بل على مستوى الإقليم والعالم أيضاً.

المؤسسة والضمانات

يوسف الشايب: لضمان استمرار المؤسسة في برامجها، ألا يوجد أي تخطيط للاستثمار بمفهومه التجاري في الحقل الثقافي والفني، بحيث

ما تدره هذه الاستثمارات من أرباح يصب لدعم مشاريع المؤسسة وتطويرها .. وحين أتحدث عن «التجاري» لا أتحدث عن الإسفاف بطبيعة الحال؟

عبد المحسن القطان: في هذه الحالة سنخضع العملية لحسابات الربح والخسارة، وهذا غير مقبول بالنسبة لنا، لأننا لا نرغب في تحويل المؤسسة إلى مؤسسة تجارية .. نحن ندعم مشاريع ثقافية وفنية وغيرها، ولا نشارك في إنتاجها أو صناعتها أو مردودها، بمعنى أن الدعم الذي نقدمه ليس تجارياً .. ما أحب أن أقوله، وإن كنت لا أريد أن أفهَم وكأنني أتحدث من باب الاستعراض، هو أننا كعائلة وضعنا ضمانات لاستمرار هذه المؤسسة لعشرات السنين، سواء كنت على قيد الحياة أم لا .. بالتالي لا خوف على استمرارية المؤسسة، وهذا يجعلنا أكثر إصراراً على الرفض المطلق للدخول في حسابات تجارية تتعلق بمفاهيم الربح والخسارة .. من الصفات المهمة للمؤسسة أنها من بين المؤسسات القليلة في الوطن التي لا تعتمد على أحد في تمويل ذاتها ومشاريعها .. قد نكون نفذنا مشاريع مشتركة، وهي قليلة على العموم، لكن تحت إشرافنا وقيادتنا .. نحن لا نقبل مالاً مشروطاً من أحد .. لا يمكن أن نقبل أي تدخل في سياسات المؤسسة من أية جهة كانت.

يوسف الشايب: هل من بين الضمانات ما علمته بأنك خصصت جزءاً من تركتك لصالح المؤسسة .. والحديث هنا عن 25% من ثروتك؟

عبد المحسن القطان: لم أكن أحب الحديث عن ذلك، لكن هذا أمر حدث بالفعل .. هناك وصية وموثقة بشكل قانوني تتعلق بهذا الجانب، والمسؤولون عن تنفيذها زوجتي وأبنائي، وبخاصة عمر .. وحتى لو لم تكن هذه الوصية موجودة بالأساس، فثمة إجماع مطلق من قبل زوجتي وأبنائي لحماية المؤسسة وتطويرها من بعدي .. قد تستغرب أن بعضهم طالب بتخصيص نسبة أكبر من تركتي للمؤسسة .. أنا أستغرب أن البعض يستغرب خطوتي هذه .. أنا لا أرى فيها أية غرابة .. هي قناعة، ولا أنتظر مدحاً ولا شكوراً .. بالنسبة لي أنا أنظر إلى هذه المؤسسة على أنها الباقي من عملي، وليس بإمكاني أن أتركها يتيمة.

مستقبل المؤسسة

يوسف الشايب: هناك توجه لبناء مقر جديد للمؤسسة .. هل هذه الخطوة تأتي من باب الرؤية المستقبلية لمؤسسة عبد المحسن القطان؟

عبد المحسن القطان: المبنى الجديد صمم ليكون مؤسسة ثقافية، ليس كالمبنى الحالي للمؤسسة، وهو في الأساس غير مصمم لذلك، وتم استئجار أجزاء منه .. نحن بحاجة إلى مساحات تستطيع استيعاب كل طموحات المؤسسة، على الأقل في العشرين عاماً المقبلة.

غسان قطان: السؤال هو كيف ترى مؤسسة عبد المحسن القطان بعد عشرة أعوام؟

عبد المحسن القطان: أراها «خمسين ضعفاً» مما هي عليه الآن .. سيكون لها تأثير مضاعف في كل حقل تعمل في إطاره، وستضم عشرات وربما مئات الشباب ليس فقط المتعلم، بل المتلزم والمنتمي،

جانب من زيارة مركز المعلمين في نعلين.

والذي سيكون له دور كبير في إحداث التغيير المجتمعي المطلوب .. على الأغلب أنني سأكون فارقت الحياة، لكنني متفائل جداً من مستقبل هذه المؤسسة، التي أرى أنها ستكون امتداداً لي بعد رحيلي.

عمر القطان: فكرة المؤسسة العامة تقوم على إخراجها من الحيز الخاص إلى العام بمعنى الكلمة، وهذا ما نسعى إليه .. اليوم الذي تتحول فيه إدارة المؤسسة إلى إدارة مستقلة عن العائلة، ويقوم عليها أشخاص يعترف بهم المجتمع، ويملكون حضورهم على الصعيد الفكري والثقافي والمهني، نكون حققنا أهدافنا في تأسيس مؤسسة عامة، التي هي الفكرة التي تقوم عليها المؤسسات الخيرية في الغرب، وتقوم عليها فكرة الوقف الإسلامي.

عبد المحسن القطان: حتى تتطور المؤسسة وتستمر في العطاء، لا بد أن تخرج عن الإطار العائلي لها .. قد يكون هناك ممثل للعائلة في إدارتها، لكن لا بد من استقلال هذه الإدارة عن العائلة ذات يوم، وهو ما نعمل على تحقيقه .. لا بد أن يشعر المجتمع بأنه شريك في إدارة هذه المؤسسة، كي يدافع عنها، وتواصل عملها بمزيد من التألق.

معهد دراسات إستراتيجية

في نهاية الجلسة الحوارية، كشف عبد المحسن القطان عن فكرة يعود عمرها إلى عشرين عاماً، وتتمحور حول تأسيس معهد دراسات إستراتيجية مستقل، وكان من الصعب تنفيذها لغياب حرية الرأي والتعبير .. ويقول: الآن الظروف تتغير، وسنبحث في الأيام المقبلة إمكانية تأسيس معهد دراسات إستراتيجية مستقل .. الفكرة متبلورة، وهناك وضوح في الرؤية، والتوجه الواضح هو أن تكون الإدارة للجيل الجديد من القادرين على التميز في هذا المجال .. نحن ندعم الفكرة معنوياً ومادياً، لكننا يجب ألا نتدخل في الإدارة، وسألتقي بالرئيس أبو مازن، وبالدكتور سلام فياض رئيس الوزراء، وهم أصدقاء، وسأطرح عليهم فكرة المعهد غير المنحاز لأحد، الذي سيقدم دراسات في زوايا متعددة ذات علاقة بالقضية الفلسطينية، من بينها علاقتنا مع العدو، ومع الولايات المتحدة، وغيرهما، ويقدم حلولاً وبدائل لصاحب القرار، ولعامة الجمهور، دون مجاملات .. نحن متجهون نحو ذلك باستقلالية تامة، وهو مستقل عن مؤسسة عبد المحسن القطان تماماً.

نشر نص هذه الجلسة الحوارية في صحيفة الأيام الفلسطينية بتاريخ 2011/3/29.

عبد المحسن القطان رئيس مجلس الأمناء، وعمر القطان أمين السر، وزياد خلف المدير التنفيذي خلال حضورهم ورشة عمل نظمها مركز القطان للبحث والتطوير التربوي حول توظيف الرسوم المتحركة في التعليم.